استخدام النار في الطقوس الجنائزية خلال العصر الحجري الحديث في سورية

د. مي الحايك*

الملخص

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على طقس من طقوس الموت المستخدمة في العصر الحجري الحديث في سورية. حيث استخدمت النار في الطقوس الجنائزية ،فقد عثر على عدد من الهياكل المحترقة في عدد من المواقع العائدة إلى العصر الحجري في محاولة لفهم وتفسير هل تشابهت طرق استخدام النار في جميع المواقع؟ أم أنه يوجد اختلاف؟، هل شملت كل الجسد أم اقتصر طقس الحرق على أجزاء معينة مثل الجمجمة والعظام الطويلة ؟ و أيضا يهدف هذا البحث لمحاولة فهم وتوضيح هل كانت هذه الهياكل المحترقة مرتبطة بطقس معين أم أنها كانت عبارة عن حريق بالصدفة؟.

*كلية الآداب والعلوم الإنسانية– قسم الآثار.

The use of fire in funerary rituals during the Neolithic period in Syria

Dr. May Hayek*

Abstract

This research aims to shed light on one of the death rituals used in the Neolithic era in Syria, where fire was used in funeral rites, as a number of burnt structures were found in a number of sites belonging to the Stone Age in an attempt to understand and explain whether the methods of using fire were similar in all sites or is there a difference, whether it included the whole body or was the burning ritual restricted to certain parts such as the skull and long bones? This research also aims to try to understand and clarify whether these burning structures were related to a specific ritual or were they a fire by chance.

* Faculty of Arts and Humanities - Department of Archeology

المقدمة:

تُعد معرفة النار نقطة تحول جوهرية في حياة الإنسان، فمعرفته للنار جعلته أكثر اطمئناناً على حياته سواءً كان داخل الكهف أم في العراء[1]. ومن غير المعروف على وجه الدقة متى وأين اكتشف الإنسان النار، إلا إنه من المعروف أن النار كانت جزءاً من حياة إنسان الهوموركتوس في الصين(إنسان بكين) منذ حوالي ستمائة ألف عام قبل الميلاد، حيث عثر على أقدم الشواهد الأثرية في كهف شيكوتين في شمال الصين الذي حوى موقد يبلغ ارتفاعه سبعة أمتار[2].

استفاد الإنسان من النار في مجالات حياته المختلفة، فقد استخدمها في طهو الطعام و أصبح تناوله له أكثر سهولةً ويسراً، فمعرفته للطهو وفرت عليه الجهد الذي كان يتطلبه لتناول الطعام نيئاً، الأمر الذي انعكس على تحسن صفاته الشكلية وخاصة صغر حجم الفكين عما كان عليه من قبل معرفته لتناول الطعام المطهو.

كانت التدفئة من أهم استخدامات النار عند الإنسان الأول، لأنها منحته القدرة على التغلب على الطقس البارد الذي كان يحد من نشاطه وقدرته على الحركة حتى داخل الكهف[3].

كما استخدم الإنسان النار للإضاءة، وكان لذلك أثره في تمكينه من الرسم على جدران الكهوف، فمنذ العصر الحجري القديم الأعلى رُسمت جدران بعض الكهوف برسوم مختلفة من الطبيعة المحيطة[4]، و اختاروا لتصويرها الأماكن الأكثر رهبة وتأثيراً في أعماق الكهوف التي دخلوها بعد أن عرفوا إيقاد السرج من الشحوم الحيوانية كما في كهف لاسيكو(Lascaux) في فرنسا وألتميرا (Altamira) في إسبانيا .

[1] De Jeus,S,Prentuss, 1984, Origin and Early Development of food, Preducing Cultures in North- Eastern Africa, Poland, P.278.

[2] Marshack,A., 1991, The Roes of Civilization, New York, p. 172.

[3] Marashack,A., 1972, World Prehistory, UK, Richard, W.K., Peruvian Prehistory, Cambridge, 1989.P.209.

[4] Ucko,Peter J.&Rosenfeld,A., 1967, Palaeolithic Cave Arts, London, pp.50-105.

كما أعطت النار الإنسان الفرصة لممارسة طقوس دينية خاصة، وأصبحت جزءاً أساسياً في هذه الممارسات الطقسية التي بدأت ربما مع إنسان النياندرتال، إذ عثر في كهف كرابينا(Krapina) في يوغسلافيا على عدد من الهياكل العظمية لنساء وقد قُطعت وألقيت بقرب الموقد الذي جرت حوله ربما الشعائر الدينية. ولم تقتصر هذه الممارسات الطقسية في الأماكن المذكورة فقط بل ربما انتشرا في كل العالم ففي المواقع العائدة للثقافة النطوفية في بلاد الشام عُثِرَ على دلائل تشير إلى استخدام النار في الطقوس الجنائزية في موقع وادي فلاح ، إذ عُثِرَ بالقرب من المساكن على مقبرة ضمت 50 قبراً تقريباً بنيت من قوالب غير كاملة من الحجر الجيري، وفي وسط هذه المقبرة وجِدَ موقد كبير يبلغ محيطه 1.2متراً، بُني من الحجارة الملساء، وبجواره كمية من الرماد بلغت سماكتها حوالي نصف المتر، وربما استخدم هذا الموقد في حرق قرابين الموتى[5]. ومن موقع وادي الحمة27(Wadi Hmmah 27) في الأردن[6] العائد إلى الثقافة النطوفية عثر على مدفن ثانوي ضم بقايا خمسة أفراد على الأقل،عليها آثار حروق على بعض الهياكل والتي تدل ربما على طقوس دينية خاصة تمت ممارستها أثناء دفن هذه المجموعة.

اولاً: استخدام النار في الطقوس الجنائزية خلال العصر الحجري الحديث:

بالانتقال إلى العصر الحجري الحديث (Neolithic) الذي غير فيه الإنسان في بلاد الشام نمط حياته، بالانتقال من مرحلة التنقل والترحال إلى الاستقرار بشكلٍ دائم، لازمه تطور نظامه الاقتصادي إلى اقتصاد جديد قائم على الجمع بين الزراعة والصيد، و معرفة كيفية تخزين الحبوب وبالإضافة لتصنيع الآنية الفخارية ،كما ترافق هذا العصر بتطور في تفكير الإنسان بالنسبة لأماكن المعيشة، فبنيت البيوت الدائرية فوق سطح الأرض، وقسِّمت من الداخل إلى غرف حسب استخداماتها، وبجوارها حفر

[5] Emile Crognier, 1974., Les Natoufiens Du Ouadi Fallah Etude Anthropologique., Paleorient, Vol.21, P.103.

[6] S.G.Webb and Edwards .P.C. 2000., Natufian Human Skeletal from Wadi Hammeh 27(Jordan), Paleorient ,Vol 28/1, P.117.

مليَّسة من الداخل لتخزين الحبوب، ورافق ذلك تطور في المعتقدات حيث بدأ بابحث عن معانٍ وتفسير لظواهر طبيعية يومية مع بدء الاستقرار وتشكيل القرى الأولى للإنسان. كما ظهرت البيوت الجماعية والتي يدل كبر حجمها والزخارف التي زينت جدرانها أنها كانت البداية الأولى للمعابد، (كما في مواقع جرف الأحمر، وتل العبر3)، خريطة رقم (1).

أيضاً جاء الاستقرار بتطور المعتقدات مثل عبادة الأسلاف و يَهدفُ الحفاظِ على صورة الأجداد ودليل ذلك العثور على الجماجم المجصصة(في كل من أريحا وعين غزال وتل أسود وتل الرماد) والتي كان يتم دفنها في مخابئ خاصة لتكون ملاذاً له يلجأ إليه عند الحاجة.

كذلك كان الاهتمام أكثر بعادات الدفن لأن المدفن هو المكان الأخير الذي يودع فيه الإنسان، وجاءت المدافن متنوعة ما بين الدفن ضمن أرضيات البيوت و بالقرب من المنازل، وأحياناً كانت الهياكل تودع في مكان واحد، وقد ترافقت عملية الدفن مع ممارسات جنائزية مختلفة سواءً فصل الجماجم عن الهياكل، أو استخدام النار أحياناً في حرق هذه الهياكل أو أجزاء منها، وقد تنوعت هذه الطقوس التي عثر عليها في عدد من المواقع العائدة إلى العصر الحجري الحديث بمراحله الثلاث ما بين:

الخريطة (1) تبين مواقع العصر الحجري الحديث في سورية.

1- الحرق ضمن المنازل:

تنوعت ممارسة حرق الجثث بعد الوفاة وفق عدة أساليب صنفها هذا البحث بحسب مكان الدفن إلى حرق الجثث مع الأبنية بعد وضع المتوفى إما داخل المبنى أو على السقف :

أ- مرحلة ما قبل الفخار"أ":

في موقع الجرف الأحمر المؤرخ بأواخر الألف العاشر قبل الميلاد(ما قبل الفخار"أ") عثر على حفرة موقد مقعرة الشكل مملوءة بالحصى ضمت ثلاث جماجم بشرية عليها آثار احتراق في أسفلها، وهذا يدل على أن الموقد كان مشتعلاً لحظة إيداعها، وقد تم إغلاق الموقد ببلاطات حجرية[7]. ومن الأماكن التي ضمت بقايا عظمية محترقة في موقع الجرف الأحمر منزل رقم(EA30) وهو عبارة عن منزلٍ دائريٍ كبيرٍ مكوناً من غرف متعددة تم حفره في الأرضِ، وقد ضمَ هذا المبنى هيكلاً عظمياً منزوع الجمجمة ومحترق جزئيا يعود لسيدةٍ شابة بلغت من العمر بين(15–18 سنة حين الوفاة) وقد مددت على الأرض حيث كانت ذراعها ورجلها بأقصى طول لهما وهذه الوضعية للهيكل توحي بأنها كانت مقيدة للأرض[8](الشكل رقم 2)، تدل بقايا الحطام حول الهيكل بأن النار أضرمت بالمنزل بشكل كامل بعد عملية الدفن وربما كان ذلك ضمن طقوس متعلقة بالموت ووضعية الهيكل الممدة بهذا الشكل توحي بمعنى رمزي[9]. ويشير الهيكل العظمي مع الجماجم إلى وجود علاقة متبادلة بين الموت والنار وتشير الأدلة في الجرف الأحمر بقوة إلى وجود صلة بين الدفن والتدمير بالنار وهجر الموقع.

---

[7] Stordeur D. and Jammous B., 1998" Fouille Franco-Syrienne de Jerf el-Ahmar". Unpublished Report Submitted to Direction of Department of Antiquities of Syrie.P13.

[8] Stordeur D (2006) Les baˆ timents collectifs des premiers Ne´olithiques de l'Euphrate.Cre´ation, standardisation et me´moire des formes architecturales. In: Butterlin P, et al.(eds) Les Espaces Syro-me´sopotamiens. Leiden: Brepols, pp. 19–31.

[9] Stordeur D (2015) Le Village de Jerf el Ahmar. L'Architecture, Miroir d'une Socie´te´ Complexe. Paris: CNRS e´ditions.

الشكل رقم 2 صورة تبين الهيكل العظمي ومكانه في المبنى رقم EA30

من موقع جرف الأحمر عن Stordeur D (2015)

ومن تل المريبط عثر داخل البيت الدائري رقم (22) في السوية (IIIA) المؤرخة بالعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار"أ" على موقد مليس بالطين ومليء بالرماد والبقايا العظمية التي كانت عبارة عن جمجمة تصحبها عظام الأطراف بدون نهاياتها. ومن جعدة المغارة تم الكشف عن موقد ضم عدد من الجماجم البشرية مازال عليها آثار الحريق. وكشفت التنقيبات الأثرية في موقع" أبو هريرة" في الخندق(E) الذي عثر فيه على هياكل وجماجم تحمل آثار الحريق[10].

اقتصر استخدام النار في الطقوس الجنائزية خلال ما قبل الفخار"أ" على حرق الهياكل كاملة كما في موقع الجرف الأحمر وموقع أبو هريرة ضمن المنازل مما يدل على وجود صلة بين الدفن والتدمير بالنار وهجر الموقع. واستخدامها أيضاً في الطقوس

[10] Molleson T., Cmerford G. and Moore A., 1992" A Neolithic painted skull from tell Abu Hureyra, Northern Syria" Cambridge Archaeological Journal 212:230-235.

المرتبطة بالجماجم بشكلٍ خاص كما في مواقع المريبط وجعدة المغارة بطقس ربما مرتبط بعبادات الأسلاف.

ب- ما قبل الفخار"ب"

استمر استخدام النار في طقوس حرق الجماجم خلال العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار(ب) فقد كُشِفَ في موقع تل الشيخ حسن عن مدفن تحت موقد للنار ضمن أحد المنازل ضم جمجمتين لطفلين[11].

ت- العصر الحجري الفخاري الحديث:

استمرت ظاهرة حرق المنازل مع وجود الموتى في مواقع العصر الحجري الحديث الفخاري في سورية مثل تل بقرص حيث كُشِفَ في سويات النصف الثاني من الألف السادس قبل الميلاد عن عدد من المباني، منها المنزل رقم 12 الذي بلغت مساحته 132 متراً مربعاً تقريباً ويتألف من أربع غرف مستطيلة وثلاث غرف مربعة أصغر وقد ضمت هذه الغرف بقايا ستة هياكل عظمية بشرية بالإضافة لثلاث جماجم منفصلة [12] تظهر عليها جميعاً آثار الحرق (شكل رقم3) فقد ضمت الغرفة رقم (2) من البناء هيكلاً عظمياً لشخص بالغ يحمل بيده هيكلاً عظمياً لطفل رضيع، والهيكلان بحالة حفظ جيد وقد عثر عليهما بالقرب من الموقد مع بقايا قماش محترق. وقد حلل (Akkermans) الحريق المتعمد لهذا المنزل من خلال النقاط التالية: الحريق شمل هذا المبنى فقط دون أن يؤثر على المباني المجاورة مما يوحي بإمكانية السيطرة عليه، أيضا وجود الجماجم فقط في بعض الغرف وليس كامل الهيكل العظمي وخصوصا أنه تم العثور على جمجمتين منهما بالقرب من المداخل وهذا يدل على أن هذه الجماجم تم وضعها في هذا المكان بشكل مقصود مما يدل على رمزية وأهمية المبنى، وخصوصاً أنه المبنى الوحيد

[11] Stordeur D. 1999 Reprise des fouilles préhistoriques à Tell Cheikh Hassan: une campagne de reconnaissance. Les Annales Archéologiques Arabes Syriennes 43: 59-64.

[12] Akkermans, P.M.M.G, 2008, Burying the dead in Late Neolithic Syria, Proceedings of the 5th International Congress on the Archaeology of the Ancient Near East Madrid, p.p 622-692. April 3-8 2006

الذي عثر فيه على جماجم منفصلة[13]. مما يفترض أن المنزل 12 تحول من منشأة لأغراض التدجين إلى "مخزن عظمي charnel" منزلي في نهاية حياة مالكيه أو مستخدميه[14]. أو أن له علاقة بإنهاء استخدام البناء حيث يصبح مناسب كمنشأة للدفن كما في شاتل هويوك في الأناضول[15].

وضمن السوية المؤرخ 6200– 6100 ق.م في تل صبي أبيض كُشِفَ عن بقايا هيكل عظمي دفن في مخزن البناء المحروق ذو التخطيط الهندسي الداخلي بشكل T مقسم الى ثلاث صفوف من الغرف المتوازية مع غرفة طويلة وضيقة على الزاوية اليمنى أمام الغرف، الجدران التي بقيت واقفة بطول 1.8م لم تظهر أي دليل على وجود مداخل على مستوى الأرضية، ربما كان يتم الوصول الى الغرف إما عبر فتحات كبيرة في الجدران أو عبر ممرات من السقف، بعد أن انهار البناء بسبب الحريق المتعمد، غطى الرماد كامل المنشأة بما فيها حطام الجدار المحروق والخشب المتفحم، وأيضا الجدران التي احترقت بكاملها، فقد كان حريق متعمد من خلال تزويد المنشأة بالوقود وإضرام النار فيها، بشكل يوحي بأن الحريق كان مسيطرا عليه بدقة، لأنه غطى هذا البناء فقط ولم يؤثر على الأبنية المحيطة التي بقيت مستخدمة، كما لا يوجد رماد أو حطام محترق بجانب الجدران الخارجية من البناء ذاته[16]. ضم مخزن المنزل الكثير من المرفقات

[13] Christopher Meiklejohn.2014., Bouqras Revisited: Preliminary Report on a Project in Eastern Syria, Article in Proceedings of the Prehistoric Society ·p.p 352.

[14] MERRETT D.C. AND C. MEIKLEJOHN in press «Is House 12 at Bouqras a Charnel House? », in: M. Faerman, L. Kolska Howitz, T. Kahana and U. Zilberman (eds.), Faces from the Past - Skeletal Biology of Human Populations from the Eastern Mediterranean. Oxford: British Archaeological Reports, International Series, P.P:626

[15] MATTHEWS R. 1996 «Surface Scraping and Planning», in: I. Hodder (ed.), On the Surface. Çatalhöyük 1993-95. Cambridge: British Institute of Archaeology at Ankara, McDonald Institute
for Archaeological Research, pp. 79-99.

[16] AKKERMANS P.M.M.G. and M. VERHOEVEN 1995 «An Image of Complexity – The Burnt Village at Late Neolithic Sabi Abyad, Syria», American Journal of Archaeology 99: 5-32.

كالبلاطات الحجرية والبازلتية (المنجزة)، هاونات ومدقات. أختام طينية وطبعات أختام مختلفة والفيش tokens بمختلف الأشكال والأحجام[17].

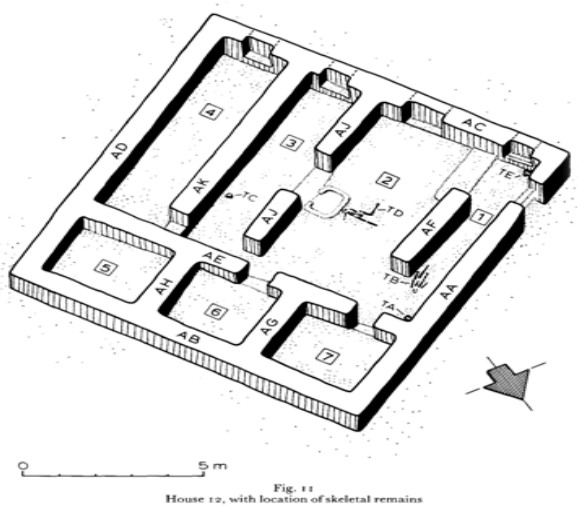

شكل رقم (3) يُبين مخطط المزل "12" في بقرص وأماكن توضع الهياكل العظمية عن:
AKKERMANS,2015

ومن بين المكتشفات الهامة في تل الصبي الأبيض، اكتشاف ما سمي " بالقرية المحروقة Burnt village" التي شيدت على مساحة تبلغ الهكتار تقريباً وضمت مجموعة من المباني المستطيلة المتقاربة بجوار بعضها البعض، والتي استخدمت كمخازن للحبوب بالإضافة للعديد من المباني الدائرية الصغيرة والتي استخدمت كأماكن للسكن والمعيشة، وقد دمرت معظم هذه المباني بحريق كبير في حوالي(6000– 5900ق.م) حيث ظهرت هذه السوية الأثرية غارقة بالرماد[18] ويعتقد اكرمانس(Akkermans) وفريقه الأثري أن الحريق كان عبارة

[17] AKKERMANS P.M.M.G. and K. DUISTERMAAT 1997 «Of Storage and Nomads – The Sealings from Late Neolithic Sabi Abyad, Syria»,Paléorient 22: 17-44.
[18] Akkermans, P.M.M.G, "Tell Sabi Abyad", Chronique Archéologique En Syrie, vol. 1, (1992), pp. 36 - 37

عن فعل طقسي ومتعمد وجاءت هذه الفرضية من بقايا هيكل عظمي لبالغين اثنين بجانب بعضهما، الأول لذكر والثاني لأنثى، بعمر فوق 30 سنة عند الوفاة، تم توجيه جسم كلا الجثتين نحو الشمال جنوب تماما، وتمددا على الجانب وتقابلا باتجاه بعضيهما، والأرجل مثنية بشدة. تمددت جثة الأنثى المحفوظة بشكل سيئ على جانبها الأيسر، ورأسها نحو الشمال والوجه نحو الجنوب، بينما تمددت جثة الذكر على جانبه الأيمن، والرأس نحو الشمال والوجه إلى الشرق. وعثر على دمى حيوانية كمرفق جنائزي أو نوع من الطقوس الجنائزية تعد هذه الحالة أول نموذج عن دفن رجل مع أنثى تأثرا في حريق البناء، أو دفن بسيط، والسبب الواضح غياب وجود حفرة دفن، ربما توضعت الجثتان معا على سطح البناء وبسبب اشتعال الحريق سقط السقف وأصبحت الجثتان على أرضية الغرفة، وقد تمددت الأطراف المثنية بعض الشيء نتيجة السقوط بعد انهيار السقف، وهما مازالا يمسكان بعضيهما بواسطة ربطات فنيت مع بداية الحريق وبقيت العظام فقط التي تعرضت لحرارة 500–800 درجة مئوية، تم تلوين الأنثى بشكل منسق جدا حيث دلت كل عظامها على وجود مواد ثابتة الحرارة أطالت فترة ملامسة الجسد للحريق مباشرة. يستدل من البقايا المحروقة في جثمان الذكر أن عظام الكتف والصدر تعرضت للنار، بينما حفظت الجمجمة وأغلبية أجزاء الجسم من التعرض المباشر للنار (ربما حفظت بحطام البناء خلال انهياره). تضمن المرفقات مع الهياكل العظمية عشر قطع طينية غير منجزةtorsos' طولها يزيد عن 63سم (شكل 4) مع أجزاء من جمجمة وقرن غنم بري وأسنان وأضلاع ماشية وضعت في البناء V (شكل 5). لم يعثر على حالة مشابهة في القرية المحروقة أو في أي مكان آخر.

هذه المواد المبهمة وضعت بالأصل على سقف البناء حيث أحاطت بجثث الموتى وسقطت معها الى الغرفة في الأسفل عندما انهار السقف. وكما يبدو فإن ما ذُكر يُعتبر نوع من ممارسات الدفن المعقدة التي تجمع بين موت شخصين وبناء مهجور وحرقه مع احتواءه الموتى[19].

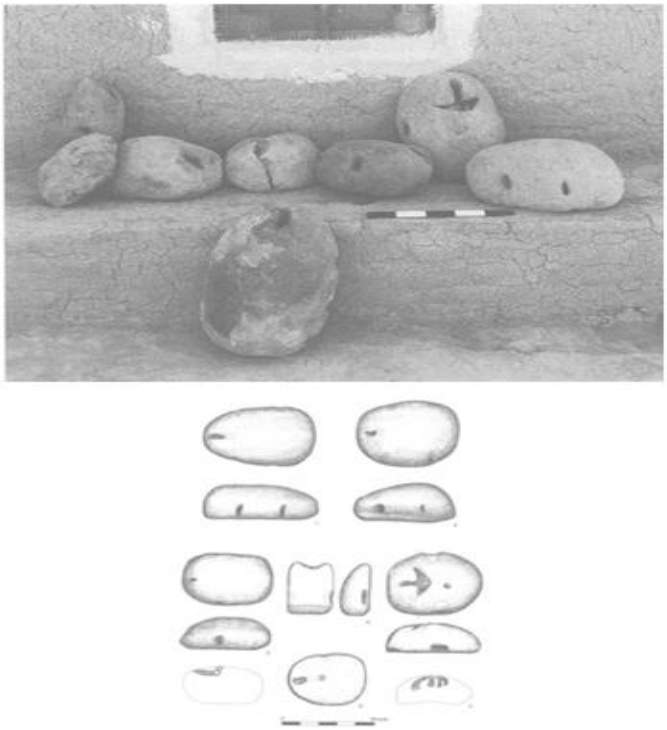

شكل رقم (4) يبين الكتل الطينية الكبيرة التي عثر عليها في بناء V تل الصبي أبيض عن: source: Spoor and Collet, 1996

[19] Spoor, R.H., and P. Collet, 1996: The other small finds, in P.M.M.G. Akkermans (ed.), Tell Sabi Abyad. The late neolithic settlement. Report on the excavations of the university of Amsterdam (1988) and the national museum of antiquities Leiden (1991-1993) in Syria, Istanbul, 439-475. Stevanovic, M., 1997: The age of clay. The social dynamics of house destruction, Journal of anthropological archaeology 16, 334-395

شكل رقم (5) قرون لنوع من الماعز البري التي عثر عليها بالقرب من الهيكلين

في الغرفة رقم 7من المزل "V" عن:Spoor and Collet 1996

في الغرفة 8 الأصغر توضعت على ظهر البناء BN04-5 بقايا هيكل عظمي لامرأة شابة عمرها 14– 20سنة عند الوفاة شكل رقم (6)، بشكل يعاكس بقايا الشخصين البالغين على سقف مخزن المنزل V في القرية المحروقة، حيث تم تجهيز وضعيته للدفن قبل الحرق.

شكل رقم(6) دفنة رقم BN04–5 من تل الصبي أبيض

عن:AKKERMANS,2015

تم توجيه الجسم باتجاه شرق غرب، والرأس نحو الشرق، الوجه نحو الجنوب، بشكل مطابق للدفن العام الذي ساد هذه الفترة، تمدد الجسم على الجانب الأيسر بوضعية الجثو، يوازي الظهر جدار البناء، وثنيت الذراع اليمنى أمام الجسم. بينما امتد ت الذراع اليسرى تحت الجسم والركبة اليسرى فوق الكف، توضع على ظهر الكف رأس صولجان بازلتي الذي وضع عمدا في القبر كمرفق جنائزي (بلغ قطر الصولجان 7.5سم، مثقوب من مركزه بثقب قطره 2سم)، توضع تحت الجمجمة مباشرة قطعة صغيرة من المغرة ochreالصفراء مع الكثير من عظام حيوان ، لم يتم دفن الجثة على أرضية الغرفة بل توضعت عليها بعد انهيار الغرفة مع التراب الذي غطى الجثة. يوضح ذلك أن الغرفة الصغيرة استخدمت كمخزن لمرة واحدة فقط وتحولت الى حجرة دفن أو قبر في وقت لاحق، ولا يمكن استثناء أن غرف البناء احتفظت بوظائفها الأصلية ويعتبر Akkermans أن المخازن انتهى استخدامها في وقت قصير بعد الدفن أو ربما بسبب انهيار البناء بسبب الحريق وظل مشغولا بالجثة داخله.

لم تكن الجثتان في البناء V مرفقة بأشياء مادية تدل على مكانة أو منزلة رفيعة باستثناء القطع غير المنجزة torsos' التي أحاطت الميت كاملا كدائرة. بينما كانت الجثة في الموضع II تضم عدداً كبيراً من شظايا رأس صولجان حجري، ربما امتلاك هذه الأداة يدل على الفخامة أو منزلة خاصة حيث تحمل كمقبض باليد. بينما وجود الأدوات نصف المنجزة torsos' بدل من منتهية التصنيع ربما كان متعمدا، حيث تشير الدراسات الاثنوغرافية والأثرية على أن كسر المصنوعات في الطقوس الجنائزية مرتبط غالبا في إزالة الضعف والسوء والمرض عن الميت[20]. أيضاً عثر على حالات مشابهة لحرق الجثث على سطح الأبنية في العربجية [21]، وربما في دموز تبه[22].

[20] AKKERMANS P.M.M.G. and G.M. SCHWARTZ 2003 The Archaeology of Syria – From Complex Hunter-Gatherers to Early Urban Societies (ca. 16,000-300 BC). Cambridge: Cambridge University Press.

[21] Campbell 2000: p19

تقدم فكرة تحول وظيفة البناء في بقرص من أغراض التدجين الى مكان للدفن دعم لحالة أبنية تل صبي أبيض التي استخدمت كمخازن منزلية لمرة واحدة، ثم الى أغراض الدفن في وقت لاحق، مع أنه من غير المؤكد إعادة استخدام البناء، فعندما يموت أحد من أصحاب أو مستخدمي البناء كان يتم تحويل البناء الى مكان للدفن كاعتبار جنائزي في رحلة الشخص الأخيرة بين الموت والدفن[23].

2- حرق الهياكل في حفر خاصة:

في مرحلة العصر الحجري الحديث الفخاري استخدمت النار في طقوس حرق الجثث، ليس ضمن المنازل فقط وإنما في منطقة حرق مكشوفة أو ضمن حفر الدفن كما في موقع تل الكرخ، فقد عثر على شكل مختلف من طقوس التعامل مع النار، وقد كشفت البعثة الأثرية العاملة في تل الكرخ عن أربع حفر لإحراق الجثث، في المقبرة المؤرخة بالعصر الحجري الحديث الفخاري ضمت بقايا هياكل محترقة للجنسين من كل الأعمار[24]، من عمر الطفولة حتى البلوغ وهذه الحفر هي:

[22] ERDEM DENİZ: 2013, SOCIAL CONTEXT OF SMALL FIND DISTRIBUTION AT DOMUZTEPE; RITUAL DISPLAY AND SOCIETY, A THESIS SUBMITTED TO THE GRADUATE SCHOOL OF SOCIAL SCIENCES OF MIDDLE EAST TECHNICAL UNIVERSITY, p26

[23] MOORE A.M.T. and T.J. MOLLESON 2000 «Disposal of the Dead», in: A.M.T. Moore, G.C. Hillman and A.J. Legge, Village on the Euphrates – From Foraging to Farming at Abu Hureyra. Oxford: Oxford University Press, pp. 277-299.

[24] Tsuneki,2011, A glimpse of human life from the Neolithic cemetery at Tell el-Kerkh, Northwest Syria, Documenta Praehistorica XXXVIII, P.86.

الحفرة رقم (5) يبلغ قطرها حوالي 1 متر وعمق 0.4 متر، ضمت ثلاثة هياكل بشرية اتخذت اللون البرتقالي بفعل الحرق، بالإضافة لبقايا خمس جماجم محترقة تعود لبالغين قد تراوح لونها ما بين اللون الأبيض أو اللون الأسود الناتج عن الحرق، وقد تبين أن هذه الجماجم بقيت كما هي في الحفرة بعد الحرق أي لم يتم التعامل معها لاحقاً. على العكس من البقايا العظمية الأخرى التي تم فصلها عن بعضها داخل الحفرة ، فقد عثر على عدد من العظام الطويلة التي مال لونها للأسود وقد جمعت في الطرف الجنوبي من الحفرة (شكل رقم 7 أ–ب) هذا و لم يتم العثور على أي من المرفقات الجنائزية ضمن هذه الحفرة باستثناء جرتين من الفخار الداكن اللون بالإضافة لختم ذو لون رمادي بسبب الحريق عثر عليه داخل إحدى هذه الجرار وقد زخرف الختم بخطوط متقاطعة (الشكل 8) ولربما كانت هذه الجرار مخصصة للموتى الذين تم حرقهم في الحفرة.

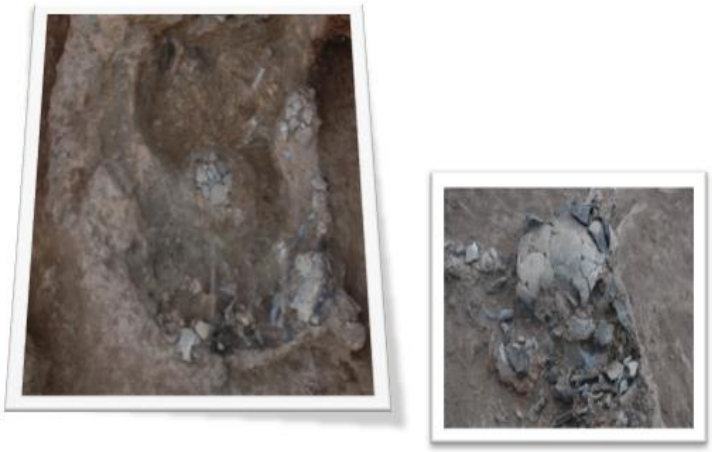

7 – أ 7 – ب

شكل رقم 7 (أ– ب) يبين حفرة الحرق رقم (5) والبقايا العظمية المكتشفة فيها

عن:,Tsuneki. 2013

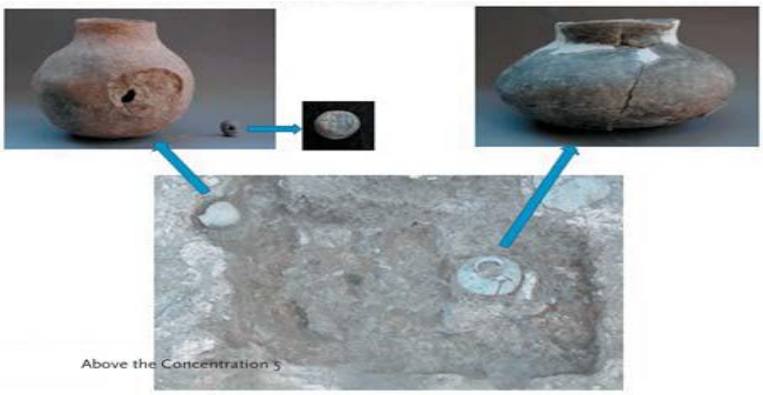

الشكل (8): يبين الجرار التي عثر عليها في حفرة الحرق(c5) والختم الذي ضمته إحدى الجرار.

عن: Tsuneki. 2013

الحفرة رقم (C6): تشابهت مع الحفرة السابقة من حيث لون الجدران المائلة للبرتقالي، كشف بداخلها عن سبعة هياكل عظمية تقريباً وقد دلت الدراسة الأنثربولوجية لها على أنها تعود لمراحل عمرية متفاوتة ما بين المراهقين والبالغين[25]. كما تبين أن هذه الحفرة قد استخدمت على فترات مختلفة إذ لوحظ فيها مستويان مختلفان من الأرضيات داخلها، الحفرة القديمة وقد طليت جدرانها بالطين (الشكل رقم 9، أ) وبلغ قطرها حوالي 0.6متر وعمق 0.3 متر وعثر داخلها على بقايا عظمية بشرية، هي عبارة عن أجزاء من عظام الحوض بالإضافة لعظام الفخذ، وعند الحافة الجنوبية الشرقية للحفرة عثر على جرة فخار من النوع الداكن أيضاً. أما الحفرة الأحدث فقد بلغ قطرها 1.0–1.7متر وعمقها 0.2 متر(الشكل رقم 9 ب). ضمت مجموعة من العظام الطويلة التي تم جمعها ووضعها قبل حرقها. تضمنت الحفرة بقايا أخشاب متفحمة في الجزء السفلي على الجانب الشرقي والتي استخدمت لحرق الجثث، كما كشف فيها عن صف صغير من الحجارة

[25] Tsuneki,2013. The Archaeology of the Death in the Late Neolithic: A View from Tell el-Kerkh. In Nieuwenhuyse O.P., Bernbeck, R.,Akkermans,P.M.M.G., Turnhout: Brepols publishers.PP. 203-212.

شكل رقم 9، ب: يبين الطبقة الأحدث لحفرة الحرق (c6) 2013 .Tsuneki.

الصغيرة وكمية كبيرة من القمح، وربما كان هذا جزء من طقس تقديم القرابين للأشخاص المتوفين.

الحفرة الثالثة وهي الحفرة رقم (9): جاء مخططها مختلف عن الحفرتين السابقتين فهي مستطيلة الشكل تبلغ أبعادها(1,0م ×0,9م) وهي حفرة ضحلة قليلة العمق، كانت الحفرة مليئة بالتربة المحترقة ذات الألوان الأبيض والرمادي والأسود[26]. وفي قاع الحفرة عثر على طبقة رقيقة من مواد عضوية سوداء اللون. كما تضمنت الحفرة ما لا يقل عن بقايا عظمية لخمسة أفراد قد تم حرقهم، وقد تراوحت أعمارهم بين الأحداث والبالغين، تميزت بعض هذه الهياكل بأن العظام مازالت مرتبطة مع بعضها البعض بمفاصل الربط. لكن لم يعثر على أي من المرفقات الجنائزية في هذه الحفرة. تميزت جميع الهياكل العظمية المحترقة في تل الكرخ بأنها جثثاً متحللة قد تم حفرها من مواقع الدفن الأولية ووضعها في الحفرة ليتم حرقها لاحقاً.

[26] Tsuneki, A.2012, Tell el -Kerkh as a Neolithic Mega Site. Orient. Vol. 47. pp.50.

ومما سبق يمكننا أن نستنتج فيما يخص تنفيذ الحرق في مواقع العصر الحجري الحديث الفخاري أن هناك تجهيزات تسبق الحرق لعل أولها تحضير مكان الحرق (على السطح، ضمن منطقة حرق مكشوفة أو موقد أو ضمن حفرة الدفن)، و تجهيز الجثة فبعض الحالات دلت على التلوين بالأصبغة وارتداء الحلي، وكذلك من خلال التوجيه والوضعية فالغالبية كانت بوضعية الثني، وعند الحرق يبدو واضحا عدم وجود مراقبة أو اهتمام بمقدار بلوغ الحرق فالتلون المختلف للعظام بفعل الحرق دليل على اختلاف درجات حرارة النار ومقدار تعرض العظام لها، و في بعض الحالات بقيت المفاصل مرتبطة بالعظام مما يشكل دليل على درجة نار منخفضة أو ربما يوحي بقصر فترة الحرق للجثة، أي الاكتفاء بحرق النسيج العضلي للجثمان وليس حرق العظام، أو أن تعداد الجثث أكبر من حجم النار المعدة للحرق.

إذن فقد تأصلت ظاهرة حرق الجثث منذ بواكير العصر الحجري الحديث وتنوعت خلاله اساليب الحرق ولكل من الجنسين وبمختلف الأعمار منذ الطفولة وحتى البلوغ، ولتعيين نسبة التنوع والانتشار يمكن وضع الجدول الآتي:

الموقع	المرحلة	أسلوب الحرق		المرفقات الجنائزية
		الحرق ضمن الأبنية	الحرق المباشر في حفر خاصة	
الجرف الأحمر	ما قبل الفخار"أ"	4		بدون مرفقات
المريبط	ما قبل الفخار"أ"	2		بدون مرفقات
أبو هريرة	ما قبل الفخار"أ"	5		بدون مرفقات
تل الشيخ حسن	ماقبل الفخار"ب"	2		بدون مرفقات
بقرص	النيوليت الفخاري	6		بدون مرفقات
الصبي أبيض	النيوليت الفخاري	4		متنوعة
تل الكرخ	النيوليت الفخاري		22	نادرة

ومن خلال الجدول يمكن تحليل نسب بيانية (الشكل 10–11) لأساليب الحرق خلال العصر الحجري الحديث والتي تظهر أن الحرق ضمن الأبنية هي السمة السائدة في هذا العصر.

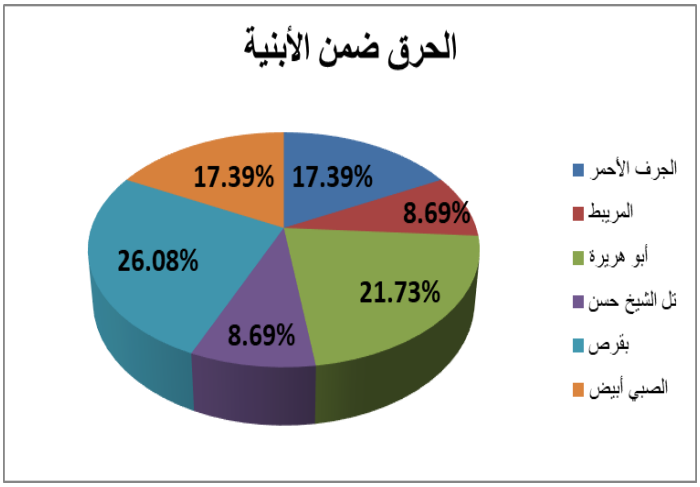

الشكل 10: تمثيل بياني يبين نسبة الحرق ضمن الأبنية بالنسبة لكل موقع من مواقع الدراسة.

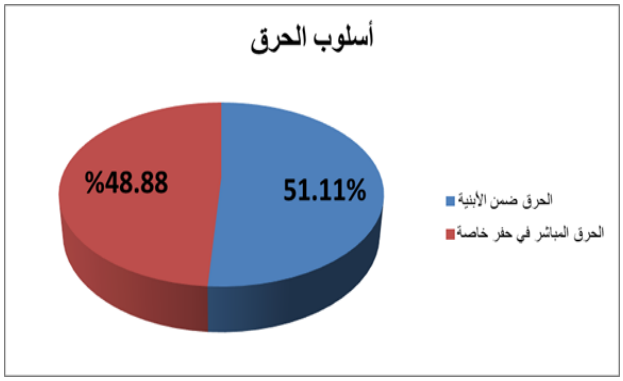

الشكل 11: تمثيل بياني لطرق الحرق سواءً ضمن الأبنية أو ضمن الحفر الخاصة.

تشكل استمرارية ممارسة حرق الجثث على كامل مراحل العصر الحجري الحديث في مختلف المستوطنات دليل إضافي على التجانس الحضاري.

3- تحليل ونتائج:

استخدم سكان العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "أ-ب" النار في الطقوس الجنائزية بوضع جماجم كلاً من البالغين والأطفال ضمن مواقد خاصة ربما كان يتم إشعالها بمناسبات معينة. كما ظهر أسلوب الحرق ضمن المنازل، والتي كانت بدايتها في موقع جرف الأحمر، واستمرت في مواقع العصر الحجري الحديث الفخاري في كلاً من تل الصبي أبيض وتل بقرص حيث تم حرق هياكل محددة ضمن المنازل، والتي كانت بدايتها في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار"أ" في موقع جرف الأحمر في طقس مرتبط بمعنى الموت والدمار، فربما النيران(المتعمدة) المرتبطة بفكرة بأنه يجب تدمير الأشياء في هذا العالم من أجل تمكين الدخول إلى عالم آخر. وربما مثلا هذا الطقس لدى سكان العصر الحجري الحديث الفخاري أن يعني الموت والنار والهجران من ناحية الإنهاء ولكن من ناحية أخرى تعني أيضاً إلى الانتقال: في حالة الوفاة، الانتقال من عالم الأحياء إلى عالم الأجداد(أو العالم الآخر). بالإضافة لحرق المنازل بشكلٍ كامل، استخدم سكان العصر الحجري الحديث الفخاري في تل الكرخ أسلوب مختلف معتمدين على جمع وحرق الهياكل في حفر خاصة بعيدة عن المنازل .

يظهر أن إضرام النار يشكل جزء من شعائر الدفن، والذي يمارس في الوقت الحاضر وفق إجراءات خاصة في بعض البلاد كالهند مثلا، قد يفترض هذا النوع من الدفن عدة تساؤلات: ما الغاية من حرق الجثث والأبنية معا؟ هل هو تجسيد للملكية بنهاية حياة أصحابه؟ خاصة مع تنوع المرفقات الجنائزية وغناها، وهنا قد يوحي بممارسة دفن خاصة بالأفراد ذوي المكانة المميزة في المستوطنة، فمعظم حالات حرق الجثث مع الأبنية العائدة لفترة حلف كانت فردية وللبالغين فقط، لأنه لم يتم تسجيل حالة لقصر أو بعمر الطفولة، مما يقود ربما إلى التعرف على المستوطنات الأكثر غنى ومكانة في خلال العصر الحجري الحديث. أما عن وجود جثتي الرجل والمرأة معا للحرق في تل الصبي أبيض فهو دلالة على متانة الروابط بين الأفراد واحترام العلاقات حتى في

الموت، فقد حرص الأشخاص الذين مارسوا الدفن على تماسك الجثتين معا وتوجيههما نحو بعضهما البعض في رمزية "الحب الأبدي"، ولعل وفاتهما في نفس الوقت يدعو للتساؤل عن سبب الوفاة الحقيقي؛ فبعض من شعوب اليوم كالهند وتايلاند تدفن الزوجين معا حتى وإن توفي أحدهما فقط كممارسة "السُتي"♦، في دليل متين على الملكية والاستحواذ حتى على حياة الأفراد. أم أن الأمر متعلق بجانب صحي؛ حيث أظهرت التحاليل وجود أمراض موروثة ولربما كان الحرق يمثل نوع من الوقاية وضمان السلامة بعد موت الأفراد المصابين والخلاص من كل أشيائهم.

يظهر أن حرق الجثث مباشرة كان بتعداد كبير، وطبق بشكل مفرد أو متعدد أو جماعي للجنسين وبكل الأعمار، والحرق المتعمد للمرفقات الجنائزية، وهنا يكمن السؤال هل هو احترام للملكية؟ والمكانة المميزة للأفراد أم أنه نوع من الوقاية وضمان السلامة من مرض وبائي ما، ربما يقود التعداد والانتشار الواسع لحرق الجثث مباشرة أن هناك وباء أو كارثة ما أصابت الأفراد ويجب الخلاص منهم ومن أدواتهم بعد وفاتهم (خاصة مع تفاوت نوعية وكمية المرفقات الجنائزية وأحيانا عدم وجودها)، ومن هنا سيكون حرق الجثث أول ممارسة للوقاية وضمان السلامة لدى مجتمعات عصور ما قبل التاريخ، مما يعني الإدراك الصحي على المستوى الفردي والجماعي.

ويمكن القول أن النار كعملية تحول هي تمثل عملاً رمزياً مناسباً لاستخدامه في طقوس العبور المتعلقة بالموت، إذ تغير النار المادة من حالة إلى حالة أخرى، وبمجرد أن يتم تغييرها لا تعود إلى حالتها الأصلية. يمكن اعتبار هذا التحول الذي لا رجعة فيه بواسطة الحرار نوع من الاستعارة للتغيير الدراماتيكي من الحياة إلى الموت.

♦ السُتي: نوع من ممارسات الدفن في الديانات الهندوسية حيث تحرق جثة الزوجة أو تدفن مع زوجها حتى إن كانت حية وذلك طوعا أو جبرا.

المراجع:

1. AKKERMANS P.M.M.G. and M. VERHOEVEN (1995)«An Image of Complexity – The Burnt Village at Late Neolithic Sabi Abyad, Syria», American Journal of Archaeology 99: 5-32.
2. AKKERMANS P.M.M.G. and G.M. SCHWARTZ (2003)The Archaeology of Syria – From Complex Hunter-Gatherers to Early Urban Societies (ca. 16,000-300 BC). Cambridge: Cambridge University Press.
3. Akkermans, P.M.M.G,)1992("Tell Sabi Abyad", Chronique Archéologique En Syrie, vol. 1.
4. Christopher Meiklejohn.(2014)., Bouqras Revisited: Preliminary Report on a Project in Eastern Syria, Article in Proceedings of the Prehistoric Society ·.
5. ERDEM DENİZ: 2013, SOCIAL CONTEXT OF SMALL FIND DISTRIBUTION AT DOMUZTEPE; RITUAL DISPLAY AND SOCIETY, A THESIS SUBMITTED TO THE GRADUATE SCHOOL OF SOCIAL SCIENCES OF MIDDLE EAST TECHNICAL UNIVERSITY.
6. De Jeus,S,Prentuss,(1984), Origin and Early Development of food, Preducing Cultures in North- Eastern Africa, Polandز
7. Marshack,A., (1991), The Roes of Civilization, New York.
8. Marashack,A., (1972) , World Prehistory, UK, Richard, W.K., Peruvian Prehistory, Cambridge, 1989.
9. MATTHEWS R. (1996) «Surface Scraping and Planning», in: I. Hodder (ed.), On the Surface. Çatalhöyük 1993-95. Cambridge: British Institute of Archaeology at Ankara, McDonald Institute for Archaeological Research.
10. Molleson T., Cmerford G. and Moore A., (1992) " A Neolithic painted skull from tell Abu Hureyra, Northern Syria" Cambridge Archaeological Journal 212.

11.S.G.Webb and Edwards .P.C. (2000)., Natufian Human Skeletal from Wadi Hammeh 27(Jordan), Paleorient ,Vol 28/1.
12.Stordeur D (2015) Le Village de Jerf el Ahmar. L'Architecture, Miroir d'une Socie´te´Complexe. Paris: CNRS e´ditions.
13.Stordeur D (2006) Les baˆ timents collectifs des premiers Ne´olithiques de l'Euphrate.Cre´ation, standardisation et me´moire des formes architecturales. In: Butterlin P, et al.(eds) Les.
14.Stordeur D. and Jammous B., (1998)" Fouille Franco-Syrienne de Jerf el-Ahmar". Unpublished Report Submitted to Direction of Department of Antiquities of Syrie.
15.Stordeur D (2015) Le Village de Jerf el Ahmar. L'Architecture, Miroir d'une Socie´te´ Complexe. Paris: CNRS e´ditions.
16.Spoor, R.H., and P. Collet, 1996: The other small finds, in P.M.M.G. Akkermans (ed.), Tell Sabi Abyad. The late neolithic settlement. Report on the excavations of the university of Amsterdam (1988) and the national museum of antiquities Leiden (1991-1993) in Syria, Istanbul, 439-475. Stevanovic, M., 1997: The age of clay. The social dynamics of house destruction, Journal of anthropological archaeology 16.
17.Tsuneki,(2011), A glimpse of human life from the Neolithic cemetery at Tell el-Kerkh, Northwest Syria, Documenta Praehistorica XXXVIII.
18.Tsuneki, A.(2012), Tell el -Kerkh as a Neolithic Mega Site. Orient. Vol. 47.
19.Tsuneki,(20130. The Archaeology of the Death in the Late Neolithic: A View from Tell el-Kerkh. In Nieuwenhuyse O.P., Bernbeck, R.,Akkermans,P.M.M.G., Turnhout: Brepols publishers.
20.Ucko,Peter J.&Rosenfeld,A., (1967), Palaeolithic Cave Arts,.